# مقاربة سيميائية لقصيدة " هي لن تموت " للشاعر الجزائري نور الدين درويش

**أ/ مكسح دليلة**
**قسم الأدب العربي**
**كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية**
**جامعة محمد خيضر، بسكرة**

إن السيميائية منهج نقدي نصاني يتجاوز تلك الأطروحات البنيوية التي تكتفي بتصنيف المكونات النصية وإحصائها وبيان نظام العلاقات الرابط بينها، إلى الغوص في أعماق النص الدلالية ، وتتيح للقارئ إمكانية إنتاج النص من جديد وكتابته ، وهي فرصة احتاجت إلى بذل الكثير من الجهد من طرف المنظرين الغربيين أمثال جماعة " **كما هو tel quel**" .

ونحن اليوم إذ نؤسس دراساتنا على ما انتقل إلينا من أطروحات ومفاهيم ، فإننا نحاول ممارسة حقنا كقراء إزاء نص من النصوص الشعرية الجزائرية المعاصرة ، ونعيد تشكيله بما تتيحه لنا السيميائية ،وقد قال **رولان بارت :** " القارئ أو الناقد ليس مستهلكا للنص فحسب ، بل هو منتج له أيضا وهو مجموعة من النصوص الذاتية والموضوعية " *01*

إن قصيدة " هي لن تموت " *02* نص شعري جزائري معاصر للشاعر **نورالدين درويش** ، وهو نص يحمل الكثير من الخبايا الدلالية التي يتيحها التشكيل الفني والدلالي معا ، واللذين يتظافران في تعميق المعاني وإبراز جماليات متفردة ، وأول ما يفتح شهيتنا على النص هو العنوان الذي يعد المفتاح الأساسي للولوج إلى التجربة الشعرية ن واكتشاف مميزاتها ، إنه شفرة ذات خصائص متعددة تعرفنا بهوية النص ومضمونه ، وتلفت انتباهنا إلى تتبع ظواهره السطحية والباطنية. *03*

يتأسس عنوان القصيدة ظاهريا على جملة اسمية مكونة من مبتدأ وهو ضمير الغائب " هي " ، وجملة فعلية في محل خبر " لن تموت " ، والجمل الاسمية غالبا تحمل دلالات الإخبار والإثبات ، إلا أننا نجد أن الخبر هو عبارة عن جملة فعلية ، وهذه الأخيرة على خلاف

الأولى تحمل دلالات الحركة ، وتعبر عن زمن من الأزمنة مما يتيح لهـا عـدم الثبـات والاستقرار ، والشاعر إذ يفتتح قصيدته بهذا العنوان فإنما يريد إيصال دلالة ما تحمل فـي ثناياها مفارقة تركيبية ودلالية في الآن نفسه ، والتي تعد حسب **ناصر شبانة** انحرافا لغويـا يؤدي إلى المراوغة وعدم الاستقرار من أجل إنتاج دلالات جديدة وهي بذلك عنده نوع من اللبس في الفكرة *04* ، إلا أن **سامح الرواشـدة** يرى أن المفارقة تقوم عادة على الضدية الظاهرية ،وتقر في الوقت نفسه بضرورة المعنى الحرفي *05*.

إن المفارقة الحاصلة في العنوان تبقى مجرد تضاد ظاهري في وظيفة المكونات الخاصـة بالجملة الاسمية ، ففي مقابل الاسم الثابت " هي " يوجد الفعل المتغير من زمن لآخر " تموت "، إلا أن هذه المفارقة السطحية تحيلنا إلى توحد داخلي أبرزه النفي بالأداة " لن " ، وأبرزه التركيب الاسمي في حد ذاته ، مما يجعل الزمن لا فائدة من تغيره ما دام فعل المـوت لـن يتحقق اليوم أو غدا ،وبذلك تأفل المفارقة البادية سطحيا لتكون الجمل بأكملها ثابتـة علـى حقيقة واحدة وهي عدم الموت والفناء والهلاك ، ولأن العنوان أداة ندخل بها " أغوار النص العميقة قصد استنطاقها وتأويلها " *06* ،فإننا نجده منتشرا داخله ظاهريا وباطنيا مما يمنح تأويلات أعمق وبروز جماليات متعددة .

فمن الناحية الظاهرية نجده كتركيب مسيطر على نهاية القصيدة في قول الشاعر :

هي في الفؤاد وفي دمي
هي لن تموت
هي لن تموت *07*

إذ يتكرر التركيب مرتين كوسيلة أسلوبية للتأكيد على دلالة عدم المـوت ، والتكـرار فـي الغالب يكون للتأكيد والإبراز *08*، كما يظهر في قوله :

سأعيش بالذكرى
بأغنيتي القديمة لن تموت *09*

وهنا تتحدد وتبرز حقيقة الذي لن يموت ،وهي الأغنية القديمة ، ويصبح العنوان مقابلا ببنائه للبناء الداخلي على شاكلة هذا التخطيط :

| | | |
|---|---|---|
| هي | لـــــن | تمـــوت |
| الأغنية القديمة | لـــــن | تمــــوت |

ويتحول الضمير " هي " الذي كان يدل على غائب غير معلوم ظاهريا إلى حاضر معلوم ، وهو الأغنية القديمة التي تنتفي عنها صفة الموت ، وهي بذلك تحمل معاني الخلود والبقاء ، لكننا عندما نحفر في أعماق النص أكثر نجد أن معاني الخلود والبقاء هـــي مجــرد دلالات سطحية تحيل إلى دلالات أعمق تدل على الصمود والتحدي وعدم الاستســلام والانهــزام ، فالشاعر الذي يحس بالركود والجمود إزاء وضع راهن مليء بالقيود والمصاعب ، يجعلــه في نظر الآخرين ميتا ولا فائدة من وجوده كمثقف .

هذا الازدراء الذي يبثه الشاعر في ثنايا نصه يجعل هذا الأخير مؤسسا على بنيتين دلاليتين هما بنية **الموت** وبينة **الحياة** ن وكلاهما تحيلان إلى العنوان الأولى ظاهريا والثانية باطنيا ، فالبنية الأولى يبدو فيها الشاعر بعيدا عن واقعه، منزويا لوحده ،مستســلما أمـــام أصـــوات تعرقل مسيرته الشعرية بالأخص ، تلك الأصوات التي تصفه بالموت والجمود ، لذلك نجــد هذه البنية مؤسسة على الألفاظ والعبارات الدالة على الموت والانهزام ، وتفتتح بها القصيدة من خلال التناص الذي تستحضر به ملامح حادثة عظيمة من الأحداث التي حدثت للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي حادثة اختبائه في الغار برفقة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ذلك الغار الذي نسج العنكبوت عليه شباكه ،ووضعت الحمامة بيضها في عشها آمنة :

وضعت على كتفي الحمامة بيضها

وعلى فمي نسج الشباك العنكبوت *10*

وكأن الشاعر يشبه فمه بذلك الغار الذي كان ملاذا آمنا للرسول صـــلى الله عليــه وســلم وصاحبه ، إلا البحث أكثر يكشف عن حقيقة التناص الذي كان لغويا فقط للفت انتباه القارئ ، ولبيان السياق الثقافي الذي ينتمي إليه الشاعر، لأن الاستعانة بالتراث هي محاولة لاضفاء نوع من الدرامية والموضوعية على عاطفة الشاعر *11*، وبيان لجوهر العلاقة القائمــة بينه وبين موروثه *12*.

إن هذا الافتتاح الذي ميز القصيدة لم يكن ليدل على الأمان بقدر ما دل على الجمود والسكون الذي طال حياة الشاعر ، ويشكل السطران الشعريان بنية دالة على السكون ظاهريا وهي جزء من بنية أكبر هي بنية الموت. يقول الشاعر ضمن البنية نفسها :

وتعالت الأصوات غرد

مثلما اعتدناك من أبد الدهور *13*

إن فم الشاعر الذي كان ساكنا غير متحرك حتى نسجت عليه العناكب شباكها ، لم يكن مغلقا إلا بمقصدية من الشاعر ذاته الذي تعالت أصوات تطالبه بالتغريد والصدح كما كان يفعل ، تلك الأصوات التي تنعته بالموت والزهد الذي هو في نظرها نوع من الموت :

أو ميت ؟

أم صرت صوفي الهوى

وتضاربت حولي النعوت *14*

إن هذه البنية الحاملة لمعاني الموت تأسست على جمل فعلية ذات زمن ماضي تدل على قدم معاناة الشاعر التي جعلت الآخرين يتنكرون له وينعتونه بالميت لأنه لم يساير ركبهم ، وكان الحقل الدلالي المسيطر جامعا لألفاظ وعبارات دالة على السكون والموت : وضعت الحمامة ..، نسج الشباك ..، ميت ، صوفي الهوى .

كما أن البنية تأسست على أسلوبي الخبر والإنشاء اللذين تكفلا ببيان وضعية الشاعر وحالته النفسية إزاء الوضع الذي يعيشه خاصة في الاستفهام " أو ميت ؟ " الذي أبدى حيرة خصومه وعدم قدرتهم على معرفة حاله الحقيقية.

أما البنية الثانية فهي التي احتوت على معاني الحياة ،وهي بنية مضادة دلاليا للبنية الأولى ، وتعتبر سلاحا مضادا أشهره الشاعر لبيان صموده وقوته ، وكان الفاصل بين البنية الأولى والثانية قول الشاعر:

أنا عفوكم

أنا لا أبايع كل قافلة تفوت

إن التي غنيتها انتبذت مكانا في السماء

فضلت بعد غيابها المر السكوت *15*

إن هذه البنية الدلالية التي تأسست على جملة اسمية مبتدئة بالضمير " أنا " وبخبر محذوف وترتبط بجملة مشابهة من حيث التكوين مبتدأ + خبر لكنها منفية ب "لا " النافية التي لا

تترك المجال لاحتمال أي معنى ، مما يمنحها صفة التأكيد على دلالة عدم المبايعة والاستسلام ، وتساندها الجملة الثانية المؤكدة ب " إن " من خلال الإحالة على دلالة الانزواء والسكوت ن وإذا كان السكوت محيلا في البنية الأولى على الموت فإنه يعد مفتاحا للبنية الثانية لما يحمله من دلالات الصمود والحياة ، وبذلك تتحول دلالة السكوت من معناها الظاهري الذي يدل على الاستسلام والخضوع إلى معنى باطني يدل على التحدي وبدء حياة جديدة يفتتحها الشاعر بقوله :

سأعيش بالذكرى
بأغنيتي القديمة لن تموت
هي في فمي
هي في الفؤاد وفي دمي
هي لن تموت
هي لن تموت *16*

إن بنية الحياة تحتفي بدلالات الانتصار والصمود من خلال ألفاظ وعبارات دالة : سأعيش ، لن تموت ، هي لن تموت .

وتتحول في النهاية البنيتان إلى بنية واحدة وجهها الظاهري بنية الموت ووجهها الباطني بنية الحياة ، وكلتاهما تمثلان انتشار العنوان:

| **هي لن تموت** | |
|---|---|
| وضعت على كتفي الحمامة بيضها | أنا عفوكم |
| وعلى فمي نسج الشباك العنكبوت | أنا لا أبايع كل قافلة تفوت |
| وتعالت الأصوات غرد | إن التي غنيتها انتبذت مكانا في السماء |
| مثلما اعتدناك من أبد الدهور | فضلت بعد غيابها المر السكوت |
| أو ميت ؟ | سأعيش بالذكرى |
| أم صرت صوفي الهوى | بأغنيتي القديمة لن تموت |
| وتضاربت حولي النعوت | هي في فمي |
| | هي في الفؤاد وفي دمي |
| | هي لن تموت |
| | هي لن تموت |

إن فاعلية الحدث الحقيقية البادية في النص الشعري تتمثل في وجه الصراع القائم بين الشاعر وخصومه ، وهو صراع ذو أساس فكري وموقف خاص ، فالشاعر له توجه معين يتمثل في عدم رضائه بأن يكون مجرد بوق يصوت به الآخرون بما يشاءون ن مما يفقده حريته وطعم الإبداع الحقيقي لديه ، لذا يبدو في النص متحديا ونافرا من تلك المظاهر التي تطبع الحياة الثقافية والإبداعية في محيطه ، ويتخذ لنفسه مسارا خاصا رغم سخرية الآخرين منه والذين عهدوا منه التبعية في السابق ، وإذا أخضعنا كل هذا لعناصر **غريماس** التي تمثل أقطاب الصراع الدرامي وهي :

**المرسل ، المتلقي ، الفاعل ، الموضوع ، القيمة ، المساعد ، المعارض** *17*

فإننا نجد قطب الصراع في النص الشعري " هي لن تموت " يتمثل في قيمة الإبداع الحقيقي وكيف ينظر إليه من طرف الشاعر وخصومه ، ويظهر المرسل وهو الشاعر متمسكا بأحقيته في ضم صوته لمن يشاء ، محاولا إقناع المتلقي وهو القارئ والخصوم أيضا بالموقف الذي أخذه ، خاصة في قوله :

أنا لا أبايع كل قافلة تفوت

وهذا السطر الشعري الذي يمثل مركزية الموضوع والقيمة الأساسية لدلالات النص ، ويظهر الفاعل الحقيقي في تأسيس الموضوع وقيمته من خلال رغبة الشاعر في بيان خلود وصمود أغنيته القديمة وبيان نجاعتها ودورها وحقيقتها ، ويمثل العنصر المعارض في الخصوم الذين يتساءلون : أو ميت ؟

وإذا كان هذا العنصر يتميز بخاصية المعارضة فإنه يتحول إلى دافع يدفع بالشاعر إلى تأسيس مجموع الدلالات التي تبني مساره ويبقى العنصر المساعد مغيبا ظاهريا ، لكنه في عمق النص يتمثل في الأغنية القديمة في حد ذاتها التي تظل علامة مميزة يلوذ إليها الشاعر وتعينه على تحمل مشاق السبيل الإبداعي .

**الهوامش:**

1- محمد عزام : النقد والدلالة ، نحو تحليل سيميائي للأدب ، وزار الثقافة ، دمشق ، 1996، ص .143

2- نور الدين درويش : مسافات ، رابطة إبداع الثقافية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرغاية ، الجزائر ، .2002

3- بشرى البستاني : قراءات في النص الشعري الحديث ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، ط1، 2002، .34

4- ناصر شبانة : المفارقة في الشعر العربي الحديث " أمل دنقل ، سعدي يوسف ، محمود درويش " نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الأردن ، ط1 ، 2002، ص .46

5- سامح الرواشدة : فضاءات الشعرية " دراسات نقدية في ديوان أمل دنقل " ، المركز القومي للنشر ، اربد ، الأردن ، 1999، ص.13

6- بشرى البستاني : قراءات في النص الشعري الحديث ، ص.33

7- الديوان : ص .12

8- رجاء عيد : لغة الشعر ، قراءة في الشعر العربي المعاصر ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصر ، 2003، ص .135

9- الديوان : ص.12

10- الديوان : ص .11

11- الديوان : ص.11

12- علي عشري زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة، مصر ، 1997، ص .20

13- مدحت الجيار : الشاعر والتراث ، دراسة في علاقة الشاعر العربي بالتراث ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، مصر ، 1995، ص .59

14- الديوان : ص .11

15- الديوان : ص 11، .12

16- الديوان : ص12.

17 – J.coquet: sémantique école de paris h.p . paris 1970 ? p 54.